

عدن في كتابات الرحالة الأوروبيين ما بين القرن الثالث عشر إلى الثامن عشر

م. محمد عوض باعليان
مدرس بقسم الآثار - كلية الآداب - جامعة عدن

ملخص

نالت مدينة عدن كغيرها من مدن الشرق المهمة اهتمام المؤرخين والدارسين والرحالة والجغرافيين منذ عدة قرون، وأقدم تلك الكتابات هي كتابات المؤرخين والجغرافيين والرحالة المسلمين أمثال المقدسي وابن بطوطة وغيرهم، إلى جانب ذلك اهتم الرحالة والمستشرقون الأوروبيون منذ القرن الثالث عشر الميلادي بالمنطقة عموماً ومدينة عدن على وجه الخصوص مثل ماركو بولو، فوردت في كتاباتهم إشارات وأوصاف كثيرة عن عدن الميناء والمدينة، وفي هذا البحث الموجز سنحاول تتبع ما كتبه الرحالة الأوروبيون الذين مروا بالمنطقة أو الذين استقروا بها لبعض الوقت، وتبيان ما ورد في تلك الكتابات عن عدن من نواحٍ مختلفة كالأحوال العامة والأسواق والعمران والتجارة والبضائع والعادات الاجتماعية والأوضاع السياسية وغيرها. وسنحاول تصنيف المعلومات في تلك الكتابات طبقاً لنوعها (عمراني- اجتماعي-سياسي- اقتصادي...). وسنتناول المعلومات التي أوردها الرحالة وفقاً لتسلسلها الزمني.

1- المقدمة:

بدأ اهتمام الأوروبيين الفعلي بمنطقة الشرق الإسلامي منذ بدايات الالفية الثانية على أثر الاحتكاك (الديني) بين الطرفين الذي أفرز الحروب الصليبية، وفي عقب تلك الحروب كان لابد للأوروبيين من استكشاف بلاد المسلمين مدفوعين بعدد من الأسباب السياسية والعسكرية والاقتصادية. وكانت أقدم تلك الرحلات ما قام بها الإيطالي ماركو بولو في نهاية القرن الثالث عشر للميلاد، وكانت على الأرجح لأسباب تجارية، وفي عصر النهضة أواخر القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر كان لا بد لأوروبا من إعادة تقويم معارفها عن العالم الإسلامي وترتيب أوراقها لمواجهة بأساليب جديدة قوامها العلم والمعرفة. بالإضافة إلى الأسباب العملية الملحة التي دفعت ببعض الأوروبيين لتعميق معرفتهم بحضارات العالم الإسلامي الذي ساهم بعدة طرق في تشكيل تاريخ أوروبا الحديث، كان آخرها عبر العثمانيين الذين توغلوا في عمق القارة الأوروبية، إذن فقد أسهم المسلمون في تشكيل التاريخ الأوروبي بقدر إسهام الأوروبيين في تشكيل التاريخ الإسلامي الحديث⁽¹⁾ بطرق مباشرة وغير مباشرة أبرزها استعمار بلدان المنطقة. كما اهتم الأوروبيون بمنطقة الشرق عموماً والإسلامي على وجه الخصوص لأسباب اقتصادية، حيث شهدت الفترة من نهاية القرن السابع عشر وبداية الثامن عشر شهدت المنطقة أعمال قرصنة مترافقة مع زيادة البعثات التجارية التي انطلقت لاستكشاف مناطق إنتاج المواد الخام التي تعتمد عليها اقتصاديات الدول الأوروبية مثل القطن والبن التي أثر نقصها على تجارة وأسواق بعض الدول الأوروبية مثل إيطاليا وأسبانيا والبرتغال.

وسنحاول في هذا البحث الموجز تناول رحلات أشهر الرحالة الأوروبيين الذين مروا بمدينة عدن وسجلوا مشاهداتهم عنها.

2- عدن في كتابات Marco Polo ماركو بولو 1292م:

أقدم من زار عدن من الرحالة الأوروبيين في أواخر القرن الثالث عشر هو الرحالة الإيطالي ماركو بولو⁽²⁾ وذلك سنة 1292م، وقد سجل مشاهداته عن المدينة والمنطقة التي مر بها أثناء طريق عودته من الهند، ففي الجزء 11 الفصل 35 /فقرة (7) يقول: "... ثمانية أيام هي المسافة من وسط الهند إلى عدن التي ذكرت في الكتاب المقدس وهي بلاد تحيطها الجبال العالية التي تكثر عليها القلاع والحصون وتحتوي على كثير من اليهود الذين لا يخضعون لسلطة الوثنيين⁽³⁾..."

1.2- الوضع السياسي في عدن:

عندما زار ماركو بولو المنطقة كانت عدن تحت السلطة الرسولية في عهد الملك المظفر شمس الدين أبو المحاسن يوسف الذي كان والده المنصور نور الدين عمر بن رسول نائباً للأيوبيين على اليمن. وبعد وفاة الملك المسعود سنة 626هـ / 1228م تمكن نائبه على اليمن الأمير نور الدين عمر بن رسول من إعلان الحكم الرسولي وإزالة الحكم الأيوبي، وما أن حل عام 628هـ / 1230م حتى أعلن الاستقلال باليمن وقيام الدولة الرسولية فيها فتلقب بالملك المنصور⁽⁴⁾ وأسس الأسرة الرسولية واتخذ من تعز عاصمة لدولته وكانت عدن هي الميناء الرئيس للبلاد، حيث ذكر بولو أنه يوجد في عدن سلطان وصفه إلى جانب كونه " سلطان عدن بأنه سلطان اليمن وأنه يسكن تعز، ويسمى شمس الدين أبو المحاسن المظفر يوسف ابن الملك المنصور مؤسس الأسرة".

يتضح من سياق حديث بولو عن الوضع العام في عدن، وجود توتر في العلاقة بين المسلمين والمسيحيين (الأوروبيين)، حيث قال إن " سكان عدن المسلمين على كراهية شديدة للمسيحيين" وأورد عدداً من الأمثلة على تلك الكراهية منها أنه عندما هاجم سلطان المماليك⁽⁵⁾ مدينة عكا فإن " سلطان عدن (الأشرف) أمده بثلاثين ألف فارس وأربعين ألفاً من الجمال، ليس حياً في سلطان المماليك بل نكاية وتنكياً بالمسيحيين". وفي الفصل 35/فقرة (5) تحدث فيها عن (Abash) التي من المرجح أن تكون الحبشة وذكر صاحب الرحلة بعض الأحداث التي توضح توتر العلاقة بين العرب المسلمين والمسيحيين، فأورد قصة أحد الأساقفة الذي أرسله ملك الحبشة للحج إلى بيت المقدس وفي طريق عودته توقف في عدن وعندما علم به السلطان استدعاه وطلب منه الدخول في الإسلام وعندما رفض ذلك أمر السلطان بختنه على الطريقة الإسلامية ثم تركه ليعود إلى بلاده، وقد أدت تلك الحادثة إلى غضب ملك الحبشة الذي يقول الكاتب أنه جرد حملة على عدن تضمنت الخيول والفيلة واحتل المسيحيون المدينة لمدة شهر بعد التنكيل بأهلها. ويفهم مما سبق أن العلاقة بين المسلمين والمسيحيين عموماً قد شهدت توتراً خلال تلك المرحلة من الزمن وذلك يعد أمراً طبيعياً في ظل الأجواء المشحونة التي نتجت عن الحروب الصليبية منذ عهد صلاح الدين الأيوبي التي استمر صداها وتأثيراتها على العلاقة بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي لقرون طويلة امتدت إلى اليوم. إلا أن توتر العلاقة بين الجانبين لم يصل إلى حد القطيعة، حيث استمر الاتصال الحضاري والتجاري بين الجانبين؛ وربما لم تكن العلاقة بين الجانبين بتلك الصورة التي رسمها من زاروا المنطقة خلال تلك الفترة وإلا لما خاطر هؤلاء بحياتهم عبر استكشاف المجتمعات والبلدان الإسلامية.

2.2- الوضع الاقتصادي:

وصف ماركو بولو عدن بأنها بلاد تضم عدداً من القرى والبلدات في إشارة إلى عدن الكبرى التي تضم منطقة كريتير والريف المحيط بها كالشيخ عثمان وغيرها، كما أشار إلى إن الشحرتتبع سلطان عدن. ومن المناطق الأخرى التي ترتبط بعدن من الناحية التجارية جزيرة سقطرى التي يقول عنها ماركو بولو في الجزء الثاني/فصل32، فقرة2:" أن كل السفن التي تتعلق تجارتها بعدن تتوقف في هذه الجزيرة" ذكر بولو عدن التي يرتادها الكثير من التجار لبيعوا سلعهم هناك ويشتروا أو يستبدلوا بها الذهب. ويبدو من وصف بولو أن عدن كانت آنذاك تحتل أهمية كبرى طغت على العاصمة السياسية لذا فقد تحدث عنها كعاصمة للبلاد تخضع لها عدد من المناطق مثل الشحر.

الميناء: كان ميناء عدن أيام بولو يعج بحركة السفن التجارية التي تتردد عليه من الهند ومصر، حيث أشار بولو إلى أن السفن تأتي إلى الميناء من الهند محملة بالبضائع، ومنه تشحن البضائع إلى الإسكندرية عبر طريق طويل يبدأ بنقل البضائع في سفن صغيرة لمدة سبعة أيام حتى تصل إلى البر المصري على البحر الأحمر، ثم تنقل على ظهور الجمال حتى تبلغ النيل ومن ثم تحمل عبره إلى القاهرة ثم الإسكندرية.

3.2- السلع التجارية:

تنوعت البضائع التي كانت تستورد أو تصدر من وإلى ميناء عدن، فمن السلع المصدرة إلى مصر البهارات أو التوابل بأنواعها ومنها الفلفل، أما البضائع التي تشحن من الميناء إلى الهند فهي السلع العربية وأشهرها كانت الخيول المدرية أو المروضة التي كانت تدر دخلاً على مصدريها وذلك لأنها تلقى رواجاً في الهند نظراً لأنها كما يقول " بلد لا تتوالد فيه الخيول" لذا فقد يصل سعر الحصان هناك إلى مائة قطعة فضية"، وربما قصد صاحب الرحلة: الخيول العربية الأصيلة التي لا تربي إلا في جزيرة العرب. وكان السلطان يفرض ضرائب كبيرة على السلع الصادرة والواردة بين عدن والهند وكان يجني أرباحاً طائلة من ذلك لدرجة قيل معها إنه " من أغنى أمراء العالم"⁽⁶⁾.

3- عدن في كتابات LUDOVICO DI VARTHEMA لود فيجو دي فارتيميا (1503-1508م):

في مطلع القرن السادس عشر قام الرحالة الإيطالي لود فيجو دي فارتيميا برحلة إلى بلاد الشرق، فانطلق من مدينة البندقية في 1502م وبعد بضعة أيام في البحر وصل إلى الإسكندرية ومنها إلى القاهرة ثم بلاد الشام ومن دمشق اتجه متنكراً مع قافلة الحج إلى مكة ومنها اتجه إلى جده ثم أبحر - مارا بجيزان- إلى عدن التي وصلها في 1504م، وكانت آخر محطاته في جزيرة العرب ومنها اتجه إلى الهند. وفي طريقه إلى عدن توقف في جيزان التي وصفها وقال إن مبنائها كان يعج بالسفن وعدد مزروعاتها، ثم اتجه جنوباً عبر البحر الأحمر وساروا لمدة خمسة أيام بمحاذاة الساحل مما سمح لهم بمشاهدة القرى الواقعة القريبة من الشاطئ. وتحدث عما لاقاه وأصحابه من بدو المنطقة أثناء توقفهم للتموين. ومن ثم وصل جزيرة كمران وسجل ملاحظاته عنها ومنها أنها تبعد مسافة عشرة إلى اثني عشر كيلو متراً في عرض البحر، ويبلغ سكانها نحو مائة عائلة وفيها مياه عذبة وأنها تخضع لسلطان الإمام الذي هو سلطان العربية السعيدة. وواصل دي فارتيميا الإبحار جنوباً في البحر الأحمر قاصداً عدن التي وصلها في أقل من يومين ونصف حسب قوله.

1.3- وصف المدينة والميناء:

خصص الفصل الثالث من الكتاب الثاني لديفارتيميا عن رحلته للحديث عن مدينة عدن التي وصلها من جدة بحراً في 1504م، وقد عنون الفصل الثالث بـ "عدن والتقاليد (العادات) الوحيدة التي تحترم التجار" ثم بدأ صاحب الرحلة بوصف عدن بالقول: "عدن هي المدينة (الخارجية) الأقوى على وجه الأرض". وقد سجل دي فارتيميا مشاهداته عن المدينة ووصفها بالقول "إن لها سوراً من جانب واحد ومن الجانب الآخر تحيطها الجبال العالية المسطحة من أعلى" في إشارة إلى أنه قد صعد إلى أعلى قمة جبل شمسان ولاحظ استوائه من أعلى، كما ذكر خمس قلاع تقع على تلك الجبال.

ومن المعلومات المهمة التي ذكرها صاحب الرحلة ما يتعلق بالتعداد السكاني لعدن الذي قدره بنحو "خمسة إلى ستة آلاف عائلة" فإذا افترضنا أن متوسط عدد أفراد كل عائلة خمسة أفراد، فإننا سنتوصل بعد عملية حسابية بسيطة إلى أن سكان عدن في بداية القرن السادس عشر قد تراوح ما بين 20000-30000 نسمة. ووصف الطقس بالبحر لذا فقد "كانت السوق تقام الساعة الثانية ليلاً بسبب الحرارة الشديدة نهاراً" ولعل صاحب الرحلة قد حضر سوقاً مثل سوق السمك أو ما يسمى بالحراج حيث يعود الصيادون من البحر في وقت متأخر ليباشروا فوراً ببيع صيدهم.

وأشار دي فارتيميا إلى ميناء عدن وأنه يقع أسفل جبل تعليه قلعة، ويقصد بها شبه جزيرة صيرة بقلعتها الشهيرة إلى اليوم، وأشار إلى أن هذه المدينة-بفضل الميناء- تعد رأس مال بلاد العرب وملتقى السفن التي تتردد عليها من وإلى الهند وإثيوبيا وبلاد فارس، وعن الإجراءات المتبعة في الميناء كتب دي فارتيميا يقول: "عند وصول السفن إلى الميناء يقوم (ضباط) السلطان بالتحري عن الجهة التي قدمت منها السفينة وطبيعتها وكميتها شحنتها من البضائع والزمن الذي غادرت فيه بلادها وعن عدد أفراد طاقمها" وبعد الحصول على تلك المعلومات يقوم مندوب السلطان بأخذ صواري وأشرعة ودفتة ومراسي السفينة ويحملونها إلى المدينة حتى لا تستطيع السفينة مغادرة الميناء من دون دفع ضريبة السلطان.

2.3- الوضع العام:

صادف زمن الرحلة وقوع المنطقة عموماً ومنطقة البحر الأحمر في بؤرة الصراع الذي كان دائراً بين المماليك ومن بعدهم العثمانيين والبرتغاليين للسيطرة على خطوط الملاحة البحرية وموانئ البحر الأحمر والمحيط الهندي، وجميعها أحداث دارت في عهد الدولة الظاهرية التي حكمت اليمن منذ سنة 856هـ/1456م وقد تذبذب الموقف الظاهري الرسمي بين النفوذ المملوكي والنفوذ البرتغالي في البحر الأحمر، حيث دفع خوف الظاهريين من الاحتلال المملوكي لمناطقهم⁽⁸⁾ - الذي حدث فيما بعد- إلى تقاعسهم عن دعمهم ضد البرتغاليين الذين كانوا يجوبون مياه البحر الأحمر وبحر العرب بحثاً عن موطن قدم على سواحل خليج عدن والمحيط الهندي يمكنهم من إحكام قبضتهم على طرق التجارة البحرية، لذا فقد حاولوا عدة مرات احتلال عدن والشحر، وقد اتسم الموقف الرسمي الشعبي من البرتغاليين بالخوف والحذر الذي غذته خلية الصراع الإسلامي المسيحي منذ الحروب الصليبية، ولهذا كان الجو العام مشحوناً ضد البرتغاليين بوصفهم غرباء مسيحيين جاؤوا للتجسس على أراضي المسلمين، وقد تجلى ذلك في تقارير الرحالة والمستشرقين الذين زاروا المنطقة ولمسوا وأحسوا ذلك الشعور من عامة الناس، فذكر دي فارتيميا أنه في اليوم التالي لوصوله عدن تم الزج به

في السجن بعد أن تشاجر مع أحد مرافقيه الذي شتمه بالقول " مسيحي .. كلب ابن كلب " وتطور أمره حتى اتهم بالتجسس لصالح البرتغاليين فحبس 65 يوماً وكبل بالأصفاد . ومن ناحية أخرى أشار تقرير الرحلة إلى الصراع الدائر بين الظاهريين سلاطين عدن وإمام صنعاء وذكر أن السلطان جهز جيشاً من 80000 مقاتل وفارس انطلقوا من الراهدة لمحاربة حاكم صنعاء، والجدير بالملاحظة الوصف الذي ذكره صاحب الرحلة للزي العسكري الخاص بالجندي الظاهري، فميز بين حراس السلطان الذين تحلوا بالهندام وبين الجنود الذين اكتفوا بلبس إزار من الكتان وترك أعلى أجسادهم عارياً، وكان الجندي يزود بدرع من قطعتين يضمهما من جلد البقر إلى جانب النبال والسيوف القصيرة عريضة الطرف، وفي البرد يلبس الجنود صدرية من القماش الأحمر المحشو بالقطن، والطريف في الأمر أن الجنود كانوا ينظفون أسنانههم بالمسواك.

4- عدن في كتابات جان دو لاروك 1708-1710م:

جان دو لاروك هو كاتب وقائع أول رحلة بحرية (عسكرية) قام بها الفرنسيون لاستكشاف بلاد العرب لأغراض تجارية- منها التعرف إلى أماكن إنتاج البن في العربية السعودية- وذلك ما بين 1708- 1713م، وتكونت الرحلة من سفينتين حربيتين مسلحتين بخمسين مدفعاً، بعد مرور الرحلة بعدد من موانئ شرق إفريقيا والمحيط الهندي مثل مدغشقر مروراً بجزيرة سقطرى⁽⁹⁾ ثم سواحل إثيوبيا ومنها إلى عدن.

1.4- الميناء والمدينة:

مما ورد في وثائق الرحلة عن عدن نجد أن كاتبها قد بدأ الحديث عن عدن قبل أن تطأ قدماه المدينة وهو ما زال على ظهر سفينته، فقال " ... فلاح لنا هذا الرأس (رأس عدن) مع حلول اليوم التالي وقد بدا لنا عن بعد وكأنه مجموعة جزر وذلك لأنه يتكون من عدة قمم جبلية" وعن موقع المدينة يقول لاروك "تتربع هذه المدينة على سفح جبال عالية تحيط بها من كل الأطراف تقريباً. وعلى قممها خمس أو ست قلاع مزودة بأسوار وأعمال أخرى عديدة في شعاب الجبال" ويضيف: ولذا نفهم بسهولة من خلال ما يبقي وبفضل الموقع الخاص أن عدن كانت في ما مضى مدينة مهمة وشهيرة وحصناً منيعاً ومحطة رئيسية في العربية السعودية" (لاروك 43، 41، 44، 2004).

1.1.4- الميناء:

وصف لاروك ميناء عدن بالقول "... وفي اليوم الثالث كنا سعداء بالرسو في ميناء هو الأفضل في العربية السعودية، كما أن مدينة عدن هي الأكثر شهرة في البلد" (لاروك 35، 2004). ويصف منطقة الميناء بالقول: "أما من جهة البحر التي يسهل منها الوصول إلى هذه المدينة فهناك خليج يفتح بمقدار ثمانية أو تسعة فراسخ. وكأنه ينقسم إلى جزئين أحدهما كبير جداً ويبعد كثيراً عن المدينة والآخر أصغر وأقرب إلى المدينة وهو ما يدعى بالميناء. يبلغ عرض الجزء الثاني فرسخاً واحداً بدأ من القلعة المشرفة عليه والمزودة بخمسين قطعة مدفع، وينتهي هذا القسم عند الحامية الأبعد حيث توجد الحصون التي تكلمت عنها، وترسو السفن على عمق ثمانية عشر، وعشرين، واثنين وعشرين ذراعاً" (لاروك 43، 2004). وإذا تتبعنا الوصف السابق سيتضح لنا أنه ينطبق على الميناء القديم لعدن الذي يقع أسفل جزيرة صيرة بينها وبين الجبل المشرف على خليج حقات، أما الجزء الأكبر من الخليج المذكور آنفاً فهو الجزء الواقع شمال جبل صيرة من ناحية خور مكسر اليوم.

يمكننا معرفة بعض التقاليد والممارسات التي كانت سائدة في ميناء عدن خلال تلك الفترة مثل المراسيم المتبعة في استقبال السفن، حيث كانت السفن القادمة لأول مرة

ترسو على بعد فرسخ أو أكثر من الميناء وكان السبب في أغلب الأحيان هو الخوف من تيارات الهواء القوية المندفعة نحو جبل صيرة المطل على الميناء مثلما حصل مع الفرنسيين فضلاً عن حذرهم من النزول إلى أرض مجهولة بالنسبة لهم، وكان من عادات أهل المدينة في استقبال المراكب الوالصة أن يقدموا المشروبات المرطبة إلى القادمين في سفنهم بواسطة زوارق صغيرة، وبعد أن يؤذن للقادمين بالنزول إلى أرض الميناء يستقبلون بمراسيم شرف خاصة متبعة في مثل تلك المناسبات لا سيما إذا كانت السفن الوالصة تحمل طابعاً رسمياً كسفينة كاتب رحلتنا التي رفعت العلم الفرنسي وأحاطتها رعاية ملك فرنسا، ففي اليوم التالي لوصول الفرنسيين ميناء عدن وبعد أن عرفوا أنه مرحب بهم قاموا بإطلاق سبعة مدافع للتحية فرد حاكم المدينة بالترحيب بهم بإطلاق المدافع من القلعة الواقعة فوق الميناء (صيره). ومن أولى مراسيم الاستقبال أن يقوم (أمير البحر) - وهو قبطان على ما يبدو ومختص - باستقبال المراكب الوالصة إلى الميناء، ويكون من مهامه معرفة جهة السفن الوالصة وطبيعة مهمتها وسبب زيارتها، ومن ثم يعبر الضيوف بين صفين من الجنود على الجانبين، وبعد ذلك يقوم أمير البحر بترتيب لقاء مع حاكم المدينة ويرتب إقامة للوافدين الذين يعاملون كضيوف على حاكم المدينة كما حدث مع لاروك ومرافقيه. ونظراً لأهمية عدن كميناء يستقبل الناس من مختلف الجنسيات فإن حاكم المدينة كان لديه بعض المترجمين الذين يتقنون بعض اللغات، ففي حالة بعثة لاروك كان المترجم في قصر الحاكم برتغالي الجنسية يجيد العربية والفرنسية. ومن أهم مراسيم الاستقبال التقليدية في دار الحاكم هو تقديم القهوة السلطانية الشهيرة حسب قول كاتب الرحلة لاروك. وبعد المجاملات وتبادل الهدايا عرض حاكم عدن على الفرنسيين المتاجرة مع بلاده. حيث يورد لاروك في تقريره ما يفيد حرص حاكم عدن على الترويج للتجارة إذ حاول في أثناء لقائه بهم أن يعرض عليهم بعض التسهيلات التجارية والبضائع التي يمكن أن يزودهم بها من بلاده مثل البن اليمني، وفي ذلك إشارة إلى أن مهمة الوالي لم تكن سياسية فقط بل إن واحدة من مهامه كحاكم لعدن كميناء تجاري هي الترويج للتجارة وتطوير المدينة.

2.1.4- أسواق المدينة:

يبدو من سياق حديث لاروك عن سوق المدينة أنها كانت مرتبة على هيئة صفوف من الحوانيت الصغيرة الممتدة على جانبي عدد من الشوارع الصغيرة وممتلئة بالبضائع، وقد كانت سوقاً مخططة على أحدث طرز ذلك العصر حيث قال لاروك عنها: "... وبعدها ذهبنا لرؤية السوق حيث تباع كل أنواع البضاعة. وهي معروضة في الحوانيت الصغيرة الموجودة على امتداد عدة شوارع صغيرة وهي منظمة بشكل يشبه تقريبا سوق سان جرمان" (لاروك، 38، 2004). وأشار إلى أن السوق تدار بواسطة البائعين الذين وصفهم بأنهم سماسرة العربية السعيدة (عدن) وأن غالبية التجارين ينتمون لهذه الطائفة التي تعد من أشهر الطبقات الاجتماعية التي تشكل النسيج الاجتماعي لمدينة عدن.

2.4- الفن المعماري:

ذكر صاحب الرحلة أن للمدينة باباً يسمى (الباب البحري) يقع جهة الميناء ويبدو أنه الباب الذي يدخل منه الوافدون إلى عدن عبر البحر، وأورد وصفاً للباب بأنه ضخم ومصنوع من الخشب المثبت بمسامير ضخمة من الحديد، وبعد اجتياز الباب البحري يصف لنا كاتب الرحلة ما يمكن أن نسميه صالة الاستقبال في الميناء وهي عبارة عن قاعتين متجاورتين سقف كل منهما على شكل قبة ويربط بينهما ممر مكشوف يبلغ طوله نحو عشرة أمتار. ويبدو أن القاعة الأخيرة هي الصالة الرئيسية التي يستقبل فيها القادمون.

وهناك باب آخر من ناحية البر يسمى باب جسر الماء ويبدو أنه سمي كذلك لأن مياه الشرب التي ترد لعدن من خارجها تمر عبر هذا الباب. وقد أشار صاحب الرحلة إلى ذلك الباب بقولته: " للوصول إلى عدن عن طريق البر لا يوجد إلا ممر واحد مستعمل أنشئ على أرض ضيقة نسبياً يتجه نحو البحر ليصبح كأنه شبه جزيرة". ويشرف على رأس الطريق حصن مراقبة يتمركز فيه حراس في عدة مواقع " (لاروك، 42، 2004). وهو وصف ينطبق على الباب الذي كان قائماً في المكان المعروف اليوم بطريق (محطة العاقل) الذي يربط كريتر بخورمكسر من جهة الشرق وكانت مياه البحر تمتد لتلامس أمواجه أسفل الجبل تاركة شريطاً ضيقاً استخدم كطريق يؤدي إلى داخل المدينة. ويقع فوق هذا الممر وعلى حافة الجبل حصن أو برج حراسة مستدير لا تزال أغلب أجزائه ماثلة إلى اليوم، وكانت توجد إلى جانب أبراج الحراسة تلك العديد من القلاع التي تحيط بالمدينة، وقد زودت تلك القلاع بالمدافع المصنوعة من الحديد أو ما يعرف بالمدفع العربي أو العثماني.

وقد أشار إلى الصهاريج بقوله "وهناك قناة رائعة تقود الماء من هنا (أي من سفوح الجبال) إلى قناة أو خزان مياه بني علي بعد ربع فرسخ من المدينة وهو يؤمن مياهها عذبة لكل سكانها" (لاروك، 42، 2004).

1.2.4- بيوت الخاصة:

وهو القصر الذي يقيم فيه حاكم المدينة أو نائب السلطان، يقول تقرير الرحلة أنه يؤدي إليه درج صاعد، وورد في وصف قاعة الاستقبال في القصر ما يفيد بأنها قاعة تقليدية في صدرها تقع دكة مرتفعة مخصصة لجلوس الحاكم وعلى جانبه عدد من الوسادات ليتكئ عليها. أما المكان المخصص لجلوس الضيوف فيقع أمام الحاكم جهتي اليمين واليسار، وكان من العادة أن يخلع الداخل إلى الصالة حذاءه عند الباب. ومما سجله التقرير "...صعدنا درجا جميلاً يؤدي إلى الشقة الرئيسية فوجدنا الحاكم جالساً في صدر الصالة على منصة مغطاة بسجادة رائعة ومتكئاً على وسادات من القماش المطرز بالذهب. وكانت حاشيته تجلس على يمينه ويساره على سجادات أخرى. وقد غطت باقي الصالة حوائط ناعمة للغاية" (لاروك، 2004، 36). وكانت نوافذ بعض البيوت تغطي بالمشربيات الخشبية التي تمرر الهواء إلى داخل البيت وتستخدمها النساء للنظر للخارج فهي تمكن من الداخل من رؤية الخارج دون أن يرى، ومثل هذه المشربيات ما زالت مثبتة إلى اليوم على نوافذ بعض منازل مدينة عدن.

2.2.4- بيوت العامة:

في مقابل ذلك كانت بعض بيوت العامة تتكون من طابقين، ومبنية بالترج على السفح، إلى جانب وجود بعض الخيم. كما كانت بيوت الناس قليلة التأثيث، حيث وصف صاحب الرحلة بعض البيوت بالقول " وبالرغم من اتساع البيت وأناقته الخارجية، إلا أن أثاثه لا يتعدى الحوائط التي تستخدم كأسرة ومقاعد وموائد. وهذا ما فاجأنا ولربما كانت تلك هي عادات البلد " (لاروك، 2004، 37).

3.2.4- الحمامات التركية:

إن الشيء الذي قد لا يتوقعه بعضنا أن عدن كانت تحتوي على حمامات عامة نظراً لارتباط ذلك النوع من المنشآت بالمناطق الباردة أو المعتدلة، يجب الاعتراف بأنه لا يمكن رؤية أجمل من حمامات هذه المدينة. فهي مكسوة كلياً بالرخام ويبدو من وصف لاروك لتلك الحمامات أنها تشبه ما نعرفه اليوم من حمامات في مدينة صنعاء التي يطلق عليها الحمامات التركبية نسبة إلى الأتراك الذين جلبوا معهم هذا النوع من العمائر إلى

اليمن، إلا أن حمامات مدينة عدن يبدو أنها قد اتسمت بالفخامة حيث كسيت جدرانها بالرخام وتشكلت من مجموعة من الغرف التي غطيت بقباب صغيرة متجاورة تدور حول القبّة المركزية أو القاعة الرئيسيّة في الحمام، وهو نظام تغطيّة تركي نراه سائداً حتى اليوم في الجوامع والحمامات التي تعود لفترة الوجود العثماني، وقد أورد لاروك وصفاً جميلاً لحمامات عدن فقال: " يجب الاعتراف بأنه لا يمكن رؤية أجمل من حمامات هذه المدينة. فهي مكسوة كلياً بالرخام واليشب. وسقفها قباب رائعة ذات منافذ للضوء ومزينة من الداخل بأروقة ترتكز على أعمدة جميلة. فالبناء بأكمله مقسم إلى غرف وحجرات وقاعات أخرى مقببة. تقود كلها إلى صالة القبّة الرئيسيّة... فهي تشبه إلى حد ما ما نراه في المدن التركيّة الكبرى التي تشير إليها بالكفاية روايات الرحالة إلى المشرق" (لاروك، 2004، 39-40).

3.4- مأكولات البلد:

حوى تقرير أو كتاب الرحلة بين جنباته العديد من الإشارات الدالّة على أسماء وأنواع بعض الأشربة والأطعمة المعروفة في مدينة عدن خلال تلك الفترة، ومنها المرطبات التي لم يحدد نوعها. وأغلب الظن أنها نوع من عصائر الفواكه، حيث ذكر " وكانت مراكب البلد تأتينا أفواجا لتعرض علينا شتى أنواع المرطبات" (لاروك، 35، 2004). وفي القصر الحكومي قدمت للضيوف القهوة السلطانية، والحقيقتة أنها قهوة خاصة يتم تحضيرها في قصر الحاكم لضيوف الدولة. وتكمن خصوصيتها أنها تحضر من قشر البن الطازج واللين قبل أن يجف ويقسو، لذا من المرجح أن فصوص البن تجلب بشكل منتظم إلى قصور السلطان والأعيان، ويورد صاحب الرحلة وصفاً لعملية تحضير القهوة السلطانية فيقول: " أما عند الأعيان فهناك طريقة أخرى يتميزون بها في تحضير القهوة. فهم لا يستخدمون فص القهوة قط بل يكتفون باللحاء أو القشور التي تغلف الفص ويضيفون الغشاوة الرقيقة التي تغطي الفص مباشرة... ويضيف لاروك " يؤخذ لحاء الثمرة في تمام نضوجها ويكسر ويوضع في مقلاة أو قسعة من الفخار ثم يوضع على نار الفحم بينما يتم تحريكه بانتظام حتى لا تتعرض للحرق مثل القهوة بل لكي تكتسب بعض اللون. وفي الوقت نفسه يغلى الماء في مغلاة وعندما يصبح اللحاء جاهزا يسكب في الماء بما فيه الغشاوة ويترك المزيج يغلي مثلما تحضر القهوة العادية... المشروب طيب لطيف الطعم لا يحتاج حسب قولهم إلى إضافة السكر إذ لا يحتوي على مرارة تحتاج إلى تعديل بالسكر، لا بل إن الطعم لا يخلو من الحلاوة المعتدلة واللذيذة" (لاروك، 162، 2004-163).

وهناك الفواكه التي لم يحدد كاتب الرحلة أنواعها وذكر أنها قدمت إليهم في بيت حاكم القلعة إلى جانب المرببات التي غالباً تصنع من الفواكه. فضلاً عن اللحوم والأسماك التي كانت تتوفر بكميات كبيرة في الأسواق. وبعد قضاء عدة أيام في عدن غادر الفرنسيون عدن عائدين إلى بلادهم في 27 ديسمبر/كانون الأول 1708.

5- الخاتمة:

يتضح مما سبق الأهمية التي حظيت بها مدينة وميناء عدن منذ القدم مما دفع العديد من الرحالة والمستشرقين إلى الحرص على زيارتها أو المرور بها أثناء رحلاتهم إلى منطقة الشرق عامة وبلاد المسلمين على وجه الخصوص، ويمكن للباحثين في التاريخ الوسيط وتاريخ إثنوجرافيا المنطقة الاستفادة من تلك الكتابات لما حوته من معلومات حول أحوال الميناء والمدينة على مختلف الصعد السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة خلال الفترة الممتدة ما بين القرن الثالث عشر وحتى بدايّة الثامن عشر الميلادي. ومن

المعلومات التي أمدنا بها الرحالة عن عدن وأحوالها هي أن عدن رغم وقوعها في أقصى جنوب بلاد المسلمين تأثرت بالجو السياسي السائد بين العالم الإسلامي والغرب المسيحي والذي شابه التوتر الناجم عن الحروب الصليبية التي أعلنتها أوروبا ضد المسلمين منذ بزوغ القرن الحادي عشر فتأثر أهلها بما تأثرت به الشعوب الإسلامية، حيث عكست معلومات الرحالة إلى عدن نظرة سكان المدينة وحكامها إلى الغربيين وهي علاقة اتسمت بالحدز والريبة لاسيما خلال القرون التي أعقبت الغزو الصليبي حتى القرن السادس عشر. وعلى الصعيد الاقتصادي رأينا أهمية عدن كميناء تجاري يربط الشرق بالغرب على مر القرون، حيث كان محطة للسفن التجارية القادمة من الهند وبلاد فارس وموانئ البحر المتوسط، وذكرت تقارير الرحالة أسماء البضائع الصادرة والواردة إلى الميناء التي كانت تدر أموالاً طائلة على حكام المدينة من خلال الضرائب المفروضة على تلك البضائع. ونستطيع التعرف على بعض عادات الميناء في التعامل واستقبال السفن القادمة إليه لغرض التجارة. كما أمدنا الرحالة بعدد من المعلومات عن الناحية العمرانية للمدينة مثل العمارة المدنية كالقصور والمنازل والأسواق والحمامات العامة، فضلاً عن العمارة الحربية ممثلة بالأسوار والقلاع.

6- الهوامش:

¹ فاريثما، لودفيكو: رحلات فاريثما، ترجمة وتحقيق عبد الرحمن الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1994، ص/10.

² ماركو بولو (Marco Polo) رحالة إيطالي من البندقية، إيطاليا، ولد في 15 سبتمبر 1254 م وتوفي في 8 يناير 1324م في البندقية، هو تاجر ومستكشف كان هو وأبوه نيكولو وعمه مافيو أول الغربيين الذين سلكوا طريق الحرير إلى الصين- التي أطلق عليها اسم كاثاي - وكانت له علاقات دبلوماسية مع قوبلاي خان أكبر ملوك إمبرطورية المغول وحفيد جنكيز خان. بدأ مغامراته مع أبيه وعمه في سن 17 واستغرقت رحلاتهم نحو 24 عاماً متواصلة بعدها عادوا إلى مدينة البندقية في 1295، وعند عودتهم كانت البندقية في حالة حرب مع جنوى، لذا تم أسر ماركو بولو وأمضى بضعة أشهر في السجن يملئ وصفاً مفصلاً لأسفاره على زميل له في السجن يدعى Rustichello Di Pisa ونتج عن ذلك ظهور كتاب عن رحلاته باسم إل ميلينيوني -وهو تصغير إيميلينيوني، اسم الشهرة لعائلة بولو- الذي يدعى أيضاً رحلات ماركو بولو.

³ الوثنيين عند ماركو بولو هم غير المسيحيين ويقصد بهم هنا المسلمين أهل عدن.

⁴ التكريتي، محمود ياسين، الأيوبيون في اليمن- تاريخهم السياسي، مجلة آداب الرفادين، العدد 12، ص125.

⁵ يذكر صاحب الرحلة سلطانهم باسم سلطان بابل Babylon، كما ذكر عكا باسم Acre.

⁶ انظر تقرير الرحلة: المجلد 2، جزء 2، فصل 36، فقرة 3.

⁷ رحالة إيطالي من بولونيا، غادر مدينة البندقية عام 1502 م متجهاً إلى مصر، ثم دمشق فمكة المكرمة التي وصلها في رفقة قافلة حجاج. وقد اشتهر فارتوما بحب المغامرة والاندفاع، ولم يعر وصف الأماكن جغرافياً اهتماماً يذكر، إذ كان شغوفاً بوصف الأشياء الغريبة مما أوقعه في مشاكل عديدة مع السلطات والناس. ومن جدة غادر بحراً إلى عدن التي وصلها عام 1504م، وقضى فيها مدة قبل أن يبارحها إلى الهند بعد قضاء عشرة أشهر في الجزيرة العربية. وبعد مغامرة في بلاد فارس وجزر الهند الشرقية والحبشة وموزمبيق عاد فارتوما إلى روما في الفترة بين عامي 1558م -1559م، حيث أصدر كتابه الذي يعد الوحيد من نوعه المكتوب - بلغة أوروبية - عن الجزيرة العربية آنذاك

⁸ اتسمت العلاقة بين الطاهريين والمماليك بطابع العداوة فدارت بينهم حروب احتل فيها المماليك أراضي الدولة الطاهرية ووصلوا إلى عاصمتهم المقرنة وفي نهاية الأمر قتلوا السلطان الطاهري عامر بن عبد الوهاب سنة 923هـ بالقرب من صنعاء.

⁹ وصف صاحب الرحلة كيفية نزولهم إلى الجزيرة وتحدث عن كرم أهل الجزيرة الذين وصفهم بأنهم من العرب وان في جزيرتهم جامعاً ووصف استقبال الحاكم لهم مع أبناء الجزيرة بالرقصات الشعبية، وأشار إلى بعض مأكولات الجزيرة وعاداتها، للمزيد انظر (لا روك 2004، 20-27)